(3) النكبة.. التهجير والتشتت

2024/1/8

سأحاول في هذه المجموعة من المقالات استعراض أهم المراحل التي تمت فيها عملية الاستعمار الاستيطاني الإحلالي اليهودي لفلسطين خلال العقود الماضية، لنفهم ما تسعى إليه إسرائيل الآن في حربها الضروس على غزة، وما يحمله ذلك من أخطار على الضفة الغربية لاحقاً، وعلى القضية الفلسطينية برمتها

في هذا المقال، سوف نغطّي التحولات الديموغرافية التي حدثت في فلسطين خلال مرحلة تشتت الشعب الفلسطيني التي أعقبت قيام دولة إسرائيل عام 1948 (أو ما أصبح يعرف بالنكبة) وحتى حرب حزيران عام 1967 التي احتلت فيها إسرائيل بقية الضفة الغربية وقطاع غزة، بالإضافة إلى مرتفعات الجولان وصحراء سيناء. وسوف نبدأ أولاً باستعراض سريع لأهم الأحداث السياسية خلال تلك الفترة، ثم نتحدث بعد ذلك عن عمليات التهجير والتشريد التي تمت

***

في 15 أيار 1948 أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين، وقامت دولة إسرائيل. وفي نفس اليوم أيضا دخلت الجيوش العربية النظامية إلى فلسطين، ودارت معارك شديدة بين تلك الجيوش واليهود، تخللها أكثر من هدنة. وفي 11 كانون أول عام 1948 صدر القرار رقم 194 عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، وتضمن حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى بيوتهم وممتلكاتهم أو تعويضهم عنها. وبعد ذلك بأقل من شهر، في 8 كانون ثاني 1949، شكلت الأمم المتحدة وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا) بموجب قرار الجمعية العامة رقم 302. وخلال الشهور الأولى من عام 1949، عقدت محادثات مطولة في جزيرة رودس، أسفرت عن توقيع اتفاقيات هدنة بين إسرائيل والدول العربية المحاذية لها. وفي 5 حزيران 1967، استطاعت إسرائيل في غضون ستة أيام تحقيق نصر ساحق هزمت خلالها الجيوش العربية، واحتلت الضفة الغربية وقطاع غزة وصحراء سيناء ومرتفعات الجولان، وسيطرت بذلك على أراض مساحتها ثلاثة أضعاف مساحة إسرائيل قبل الحرب.

أدى قيام إسرائيل عام 1948 إلى تغيرات كبيرة، ديموغرافية واقتصادية واجتماعية وسياسية. فقد تم تقسيم فلسطين إلى ثلاثة أقسام، احتلت إسرائيل الجزء الأكبر منها، وارتبط جزء آخر بالأردن (وهو ما اصطلح على تسميته الضفة الغربية) بينما ارتبط الجزء الثالث بالإدارة المصرية (وهو قطاع غزة). وبالإضافة إلى خسارة أجزاء كبيرة من الأراضي الفلسطينية، كانت التحولات الديموغرافية هي أبرز التطورات التي حدثت في أعقاب حرب 1948. فقد تم خلال تلك الحرب طرد حوالي 780–800 ألف نسمة، تم تشتيتهم إلى أماكن مختلفة، فتوجه منهم حوالي 300–320 ألف شخص إلى الضفة

الغربية، وحوالي 180 ألف شخص إلى غزة، وحوالي 300 ألف شخص طردوا إلى المنافي عبر الأردن ولبنان وسوريا. وقد أكد بن غوريون، أول رئيس وزراء إسرائيلي بعد قيام دولة إسرائيل، رفض حكومته الشديد لعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، معتبراً أن الحل يأتي من خلال إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين في دول أخرى.

كانت معظم الهجرة التي تمت خلال تلك الفترة عبارة عن عمليات تهجير قسري قامت بها قوات الجيش الإسرائيلي أو العصابات الصهيونية خلال السنوات التي سبقت أو أعقبت قيام دولة إسرائيل، والتي شملت تدمير مئات القرى العربية، وتنفيذ العديد من عمليات القتل والمجازر التي أدّت إلى إثارة الرعب عند المدنيين الفلسطينيين وتهجير الكثيرين منهم إلى مناطق أُخرى من فلسطين والبلدان العربية المجاورة. وهناك الكثير من الأمثلة والأدلة التي كشفت عنها تحقيقات لاحقة، ولعل أبرزها ما حدث في مذبحة دير ياسين التي نفذتها مجموعتا الإرغون وشتيرن الصهيونيتان في نيسان 1948 وراح ضحيتها حوالي 250 من القرويين كان معظمهم من المدنيين وكثير منهم أطفال ونساء وكبار السن، ومجزرة الطنطورة التي نفَّذها الجيش الإسرائيلي بعد شهر تقريبا من مذبحة دير ياسين، أي بعد أسبوع واحد من إعلان قيام دولة إسرائيل، وقتل خلالها حوالي 280 فلسطينياً، ومذبحة قبية ليلة 15/14 تشرين أول 1953، والتي قتل فيها حوالي 70 فلسطينياً، ومذبحة كفر قاسم التي نفذها حرس الحدود الإسرائيلي في 29 تشرين أول 1956، مع بداية العدوان الثلاثي على مصر، وراح ضحيتها حوالي 50 فلسطينياً من المدنيين. وقد كشفت بعض الأدلة لاحقاً أن تنفيذ تلك المجزرة في كفر قاسم كان ضمن خطة (حملت اسم خطة "خلد") تهدف إلى ترحيل فلسطينيي منطقة "المثلث الحدودي" من خلال ترهيب سكانها. كما قام الجيش الإسرائيلي بإخلاء وتهجير السكان في عدد من المناطق والقرى، مثل تهجير الآلاف من سكان بئر السبع وتدمير منازلهم ونهب مواشيهم وأغراضهم، وتهجير سكان قرية كفر برعم وقرية إقرت وقرية كفرياسيف ومدينة المجدل وغيرها. وتشير بعض التقديرات أن إسرائيل قامت بتدمير ما يتراوح من 400 إلى 600 قرية فلسطينية خلال العام 1948 والأعوام التي تلته وطردت سكانها واستولت على أراضيهم ونهبت ممتلكاتهم.

بالمقابل، قامت إسرائيل بعد حرب 1948 بإجراءات عديدة لزيادة تدفق الهجرة اليهودية إليها، فأصدرت عام 1950 قانون العودة الذي يعطي لكل يهودي حق العودة إلى إسرائيل كيهودي مهاجر، كما أصدرت عام 1952 قانون الجنسية الإسرائيلية الذي يعطي لكل يهودي يهاجر إلى إسرائيل الحق في الحصول على الهوية الإسرائيلية بمجرد دخوله إلى إسرائيل. كما بذلت الوكالة اليهودية جهودا فائقة لتنظيم وتكثيف الهجرة والاهتمام بالمهاجرين اليهود بعد وصولهم إلى إسرائيل. وقد أدى ذلك كله إلى زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، حيث بلغ عدد المهاجرين اليهود خلال السنوات الأربع الأولى لقيام دولة إسرائيل حوالي 700 ألف مهاجر، في الوقت الذي كان فيه عدد اليهود في فلسطين عام 1948 حوالي 650 ألف نسمة، أي أن العدد تضاعف خلال أربع سنوات.

كانت هذه المرحلة خطوة كبيرة في مشروع الاستيطان الإحلالي لليهود في فلسطين، القائم على تهجير الفلسطينيين من مدنهم وقراهم وتوطين اليهود مكانهم، وهو المشروع الذي لم يتوقف، والذي تمثّل الحرب على غزة الآن أحد فصوله الرئيسية.